

التوجيه الإسلامى للنظرية البنائية لجان بياجيه

إعداد:

د/ إيمان بنت زكى عبد الله أسرة

أستاذ أصول التربية الإسلامية المساعد بقسم التربية الإسلامية والمقارنة بجامعة أم القرى- المرشدة الأكاديمية لطالبات الدراسات العليا بقسم التربية الإسلامية والمقارنة

ملخص البحث:

تعد النظريات التربوية الموجه الرئيس لبناء المنهج التربوي و إحداث التنمية اللازمة في أركانه وفق ما يأمله المجتمع الإنساني، فهي بذلك تنبثق من فلسفة المجتمع وترتكز على أهدافها، وفي ظل الانفتاح الثقافي لم يعد من الممكن قصر بناء المنهج التربوي على نظريات تربوية تنبع من ذات الفلسفة الخاصة بمجتمع ما. إلا أن المجتمع الإسلامي يخضع لفلسفة تربوية تنبثق من العقيدة الإسلامية وترتكز على ثوابت عقدية وأخلاقية تفرض على المسلم عدم تجاوزها مما يوجب على المربين نقد وتحليل النظريات التربوية الوافدة لثقافتهم قبل تطبيقها. ومن بين هذه النظريات التربوية الوافدة النظرية البنائية لجان بياجيه التي جاء اهتمام البحث الحالي بدراستها دراسة تحليلية نقدية ومقارنة بهدف توجيه مبادئها التوجيه الصحيح الذي يتفق مع مبادئ الفلسفة الإسلامية مما يسهم في تغذية النظرية التربوية الإسلامية بتصورات تربوية تتناسب مع غاية الفلسفة الإسلامية الكبرى المتمثلة في حفظ الكيان الإنساني عقدياً وخلقياً وسلوكياً وتحقيق التنمية المستمرة له.

ولقد توصل البحث لمبادئ تربوية للنظرية البنائية تتفق مع مبادئ الفلسفة الإسلامية إلا أن هذه المبادئ المنبثقة من الفلسفة الإسلامية كانت أقوى تناسباً مع النفس الإنسانية ومطالبها نتيجة الضوابط التي أحاطت بها في ظل الفلسفة الإسلامية، كما توصل البحث إلى الكشف عن السلبيات التي أحاطت ببعض مبادئ النظرية البنائية وتوجيهها توجيهاً تربوياً إسلامياً.

الكلمات المفتاحية: البنائية، النظرية التربوية، البنائيات العقلية، التعلم البنائي.

Islamic Guidance of the Structural Theory of Jean Piaget**Abstract:**

The educational theories are the main guiding principle for building the educational curriculum and bringing about the necessary development in its structures, as the human society hopes. It stems from the philosophy of society and is based on its objectives. Considering cultural openness, it is no longer possible to limit the construction of the educational approach to educational theories stemming from the same philosophy with a society. However, the Islamic society is subject to an educational philosophy that stems from the Islamic faith and is based on the moral and ethical constants imposed on the Muslim not to exceed them, which requires the educators to critique and analyze the educational theories of their culture before applying them. Among these educational theories is the structural theory of Jean Piaget. The current research interest focused on a critical and comparative study with the aim of guiding its principles to the correct direction which is consistent with the principles of Islamic philosophy. This contributes to providing the Islamic educational theory with educational concepts that are in line with the great Islamic philosophy of preserving the human entity; ethical, physical, behavioral and sustainable development.

The research has reached the educational principles of structural theory in accordance with the principles of Islamic philosophy, but these principles emanating from Islamic philosophy were stronger in proportion to the human soul and its demands because of the controls that surrounded

it under Islamic philosophy. The research also revealed the negatives surrounding some of the principles of structural theory and directing Islamic educational guidance.

Key Words: Constructivism, educational theory, mental structures, constructional learning

مقدمة:

يعد علم التربية علماً متشعباً في مجالاته المعرفية حيث تتدفق أفكاره من سعة التنظير في مجالاته المتعددة التي تولدت نتيجة الترابط المعرفي بين علم التربية والعلوم الإنسانية الأخرى، ولقد نشأ هذا الترابط من كون الإنسان محور العملية التربوية وعمادها، فكل علم متعلق به؛ هو علم يغذي علم التربية ويدعم مبادئها، كما أن كل علم يفتقر لعلم التربية؛ كي توجد له القالب المناسب لهيكلة نظريته العلمية، والانطلاق بها من التنظير للتطبيق. فالسابر لأغوار علم التربية، يجده ينبض بنظريات تربوية لعلماء مختلفين في توجههم المعرفي، كل منهم يسعى لدعم مبادئه المعرفية في علم من العلوم الإنسانية بتنظير تربوي يوفر له الوسط التطبيقي لما توصل إليه من معارف. لذا تختلف النظريات التربوية في توجهاتها ورؤيتها لعلم التربية، فمنها المتعلقة بالأهداف التربوية، ومنها المتعلقة بالمحتوى التعليمي، والآخر بالاستراتيجيات والأساليب وطرق التقويم التربوي، فكل منها ينظر للإنسان الذي يشكل موضوع التربية من الجانب الذي يعتني به، والذي يعكس نظريته العلمية. ولكون علم التربية يؤثر ويتأثر بعوامل إنسانية مختلفة تمثل محاور العلوم الإنسانية وقواعدها التنظيرية لعلم التربية، فإنه لا يمكن رفض أي نظرية تربوية برمتها، أو أخذها كما هي دون نقد ومقابلة لمبادئها بمبادئ التربية الإسلامية التي مثلت دستوراً شرعياً لحياة المسلم بمنهجها الذي يستمد علومه من أصول شرعية أصيلة يقينية حققت رؤية متوازنة متكاملة لتربية الإنسان.

فالعناية بتقويم النظريات التربوية من وجهة نظر التربية الإسلامية ليست محابة عمياء بل اتجاه سليم القواعد لعملية نقد العلوم التربوية وتقويمها في ضوء منهج أصيل مستمد من المربي الأعظم الخالق للنفس الإنسانية التي هي جوهر العملية التربوية، الأعم بخصائصها الفطرية وحاجاتها الإنسانية، كما تركز على قواعد منهجية أصيلة لنقد نتاج العقل الإنساني وأهداف ثابتة مرنة، ومبادئ متوازنة تحسن توظيف النظريات التربوية وفق ما يحفظ قوى الكيان الإنساني؛ مما جعلها تتسع مختلف النظريات التربوية توجيهاً وتقويماً وتطبيقاً. فعلم التربية الإسلامية لا يستطيع الإنغلاق على ذاته في ظل النمو المعرفي السريع؛ وفي ظل مبداه الذي يدعو للتجديد ومواكبة التطور مع الثبات على الأصول الإسلامية، هادفاً تحسين عملية التربية والنهوض بالكيان الإنساني وفق مطالب واقعه. مما يحتم على التربويين العناية بالنظريات التربوية بمختلف مجالاتها؛ سواءً أكانت نظريات في التعلم أم نظريات في المناهج وطرق التدريس. فبينما تركز نظريات التعلم على عملية التعلم والتعليم وتفسير طرق اكتساب السلوك الإنساني، تركز نظريات المناهج وطرق التدريس على الأهداف والمنهج ووسائل التقويم، وكل من الاتجاهين مهم لتزويد العملية التربوية بالأسس والقواعد التي تسيّر وفقاً لها؛ مما يجعل من يقظة التربوي ودقة نظره وتمعنه في النظريات المقدمة لعلم التربية أمراً ضرورياً لتحسين العملية التربوية ومواكبتها للتطور الحادث في العلوم الأخرى.

موضوع الدراسة:

إن من بين النظريات التعليمية التي ظهرت على ساحة التربية، واتخذت مكانة عالية لدى التربويين النظرية البنائية لجان بياجيه، والتي تصنف ضمن النظريات المعرفية، تبعاً لفلسفتها

القائمة حول المعرفة وعناصرها وكيفية اكتسابها. فالنظرية البنائية لجان بياجيه، ليست نبأً شيطانياً بل نظرية منبثقة من نظرية المعرفة، لها مبادئ معرفية تشكل رؤيتها، وترسم طريقها التنظيري.

ولذا جاءت عناية البحث الحالي بجذور النظرية البنائية المعرفية، بتحديد مفهومها ومبادئها، وتوضيح استراتيجيات التعلم البنائي، ومراحل التعلم وفق النظرية البنائية، ومن ثم يقتضي توجه البحث التأسيلي ببيان إيجابيات وسلبيات النظرية البنائية في الواقع التطبيقي، ومن ثم مقابلة مبادئ النظرية البنائية بمبادئ نظرية التربية الإسلامية؛ بهدف توجيه سلبيات النظرية البنائية والحد من أثرها السلبي على ميدان التربية، والاستفادة من إيجابياتها على نحو يرتقي بميدان التربية دون أن يضر به.

ولتحقيق ذلك اقتضى تقسيم البحث لعدة مباحث تتمثل فيما يلي: المبحث الأول: نشأة النظرية البنائية وفق مبادئ نظرية المعرفة لجان بياجيه.

المبحث الثاني: استراتيجية التعلم البنائي.

المبحث الثالث: نقد مبادئ النظرية البنائية لجان بياجيه من وجهة نظر التربية الإسلامية.

ولقد استخدمت الباحثة المنهج الأصولي والذي يعرف بأنه: "ذلك المنهج الذي نهجه علماء الإسلام في صياغة أفكارهم وثقافتهم وتصرفاتهم وفق الأصول الشرعية الكلية حتى تأخذ الصفة الدينية التي تستمد شرعيتها من عقيدة التوحيد، وهو الميزان الذي توزن به كل المنطلقات والتصورات وتضبط به كل الآراء والفلسفات والمعتقدات مهما تعددت منابعها ومفاهيمها" (أمزيان، ١٤١٣هـ: ص ٤٠٠)، حيث ينحو هذا المنهج لدراسة مبادئ النظرية البنائية دراسة تحليلية نقدية استنباطية في ضوء الأصول الإسلامية؛ بغرض معرفة مدى اتفاقها مع مبادئها وسلامتها من التعارض معها، والتأكد من صحة بنائها المعرفي ومن ثم استنباط التطبيقات التربوية للمبادئ التنظيرية وفق ما يتناسب مع الأصول التربوية للمجتمع الإسلامي. كما أن هدف البحث يتطلب استخدام المنهج المقارن والذي يعرف بأنه: "عملية عقلية تتم بتحديد أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين أمرين أو أكثر يستطيع الباحث من خلالها الحصول على معارف أدق وأوثق يمكنه أن يعتمد عليها في موضوع بحثه" (التركي، ٢٠١٠م: ص ١٣٤). حيث يتطلب هدف البحث مقابلة المبادئ التربوية للنظرية البنائية بمبادئ النظرية التربوية الإسلامية لدى بعض من العلماء المسلمين؛ بغرض إقرار الحق ببرهان يقيني الثبوت فيتمكن المربي المسلم من الوصول إلى التطبيق الأمثل لهذه المبادئ وفق ما يتناسب مع مبادئ الشريعة الإسلامية.

المبحث الأول: نشأة النظرية البنائية وفق مبادئ نظرية المعرفة لجان بياجيه.

ينظر إلى البنائية بأنها نظرية في المعرفة، تنبع من تنظير رائدها لرؤية جديدة حول المعرفة وطرق اكتسابها وعناصرها، فقد ظهرت البنائية في التربية مرتبطة ببناء المعرفة أو بنية المعرفة، وبنية المفاهيم، ولذا عرفت بالبنائية المعرفية أو البنائية المفاهيمية في التربية، لكنها لم تقتصر على التنظير، بل نفذت إلى التطبيق؛ مما جعلها نظرية في التعلم حيث ظهر المنهج البنائي، ونظريات التعليم البنائي، والطرق البنائية في التدريس، والمعلم والمتعلم البنائي.

فالنظرية البنائية لجان بياجيه نظرية في التعلم تستمد أصولها ومبادئها من نظرية المعرفة الارتقائية، التي تناولت المعرفة من حيث كيفية حدوثها وعناصرها. فهي بذلك لم تنطلق من نقطة الصفر بل كانت بناءً جديداً لنظرية المعرفة الارتقائية لجان بياجيه التي تضمنت مبادئ معرفية ساهمت في تشكيل النظرية البنائية ومثلت جذورها الفكرية. ولكونها نظرية في المعرفة، فقد اعتنت بأن يكون للمعرفة مفهوم يعكس رؤيتها الخاصة. حيث تُعرفها بأنها: "المنظومة الفكرية الناتجة عن تفاعل العقل البشري مع المنظومة الكونية" (علي، ٢٠٠٦: ص ٣٧)، ووفق هذا الاعتبار تكون

المعرفة منهجاً للتفكير وجهداً عقلياً يختلف ويتباين من فرد لآخر، يركز على التنظيم والترابط المعرفي للخبرات، ويعتمد نجاحه على قدر تناغم منظومة الفكر الإنساني مع منظومة الكون؛ ولعل هذا التعريف يشير إلى أبعاد الرؤية الخاصة بالبنائية، ويحدد عناصر المعرفة اللازمة لحدوث التعلم لدى البنائية والتي تتمثل في عنصرين أساسيين.

المطلب الأول: عناصر المعرفة لدى البنائية:

١- الذات العارفة: هي العنصر الأساسي الذي تدور عليه عملية التعلم وترتكز عليه، وتصمم من أجله الاستراتيجيات التعليمية، وتصاغ له الخبرات المعرفية، فالذات العارفة هو: "الشخص الذي يسعى لاكتساب المعرفة" (زيتون. ١٤٢٣هـ: ص ٢١).

فحدوث التعلم مرتكز على الذات العارفة معتمداً على خبراتها وفق نشاطها المستمر والمتصل؛ فذلك هو تفسير السعي لاكتساب المعرفة.

وهذا ما تراه البنائية فهي تركز على نشاط الذات العارفة وتجعله أمراً جوهرياً في الارتقاء بالبنيات المعرفية لدى الفرد، ملغية بذلك سلبية المتعلم في البيئة المعرفية، فالمعرفة ليست صورة واحدة يتم نسخها في عقل المتعلم بل هي بناء معرفي، يستثمر فيه المعلم القوى العقلية للمتعلم بنشاط تفاعلي بين الخبرة الجديدة والخبرة السابقة للفرد.

٢- موضوع المعرفة: يراد بموضوع المعرفة "الموضوع الذي يتم السعي لاكتساب المعرفة عنه؛ وقد يكون شيئاً أو حدثاً أو ظاهرة طبيعية، أو اجتماعية" (زيتون. ١٤٢٣: ص ٢١)، فموضوع المعرفة وفق النظرية البنائية يتمثل في المادة التي يتجه إليها نشاط الذات العارفة؛ لترتقي ببنائها المعرفي وفق تآزر الخبرة الذاتية مع البيئة المعرفية المزودة بالأنشطة التي ترتبط بموضوع المعرفة ارتباطاً قوياً.

وبذلك تنعكس نظرة البنائية للمعرفة على عناصر المعرفة حيث تتمثل في كونها:

١- أمراً جوهرياً الذات العارفة، ومدى نضجها وتفاعلها مع العالم الخارجي، وهي بذلك تغذي الخبرة الإنسانية، التي تعد أساس البناء المعرفي الجديد، مما يجعل حقيقة موضوع المعرفة، هو نشاط الذات العارفة، وبنائها لمفاهيم الواقع المحيط بها، فالواقع الذي تستقي منه المعرفة موضوعاتها ليس صوراً خارج الذات العارفة يتم إدراكها بشكل مستقل، بل يتم إكساب موضوع المعرفة معنى ومفهوماً خاصاً وفق ما تم إدراكه من قبل الذات العارفة وخبراتها السابقة عن الموضوع. بمعنى أن معرفة الإنسان عن أمر ما، تتوقف عند حدود خبرته الكامنة عنه، الحادثة بتفاعله معه، فكلما اتسع مجال تفاعل الفرد مع موضوع المعرفة في العالم المحيط به زاد بناؤه المعرفي، فلو كانت خبرة الفرد تقف عند حد معين عن موضوع المعرفة ستتوقف بنيته المعرفية عند ذات الحد.

٢- يتمثل موضوع المعرفة لدى البنائية في رؤية الذات العارفة الخاصة التي تفترق من شخص لآخر؛ تبعاً للخبرة المعرفية السابقة المتشكلة لدى الذات العارفة، وفق ما عكسته البيئة المحيطة به من مفاهيم عن الموضوع بتجاربه الخاصة، وبذلك تكون لكل ذات إنسانية معرفة تفترق عن غيرها مع إتفاق موضوع المعرفة، ويعاضد ذلك حسن زيتون في بيان موضوع المعرفة لدى البنائية حيث يرى أن "المعرفة ليست موجودة بشكل مستقل عن المتعلم فهي من ابتكاره هو، وتكمن في عقله ومن ثم تصبح أساس نظريته إلى العالم من حوله وعلى أساسها يفسر ظواهر وأحداث هذا العالم" (زيتون. ٢٠٠٣م: ص ٣٧٨)

المطلب الثاني: وظيفة المعرفة لدى البنائية:

تنظر البنائية للمعرفة على أساس كونها وسيلة لتحقيق التكيف للفرد والتوائم المناسب لاحتياجاته، فما يصل إليه الفرد من معرفة، يكون على درجة من الصحة وموافقة الحقيقة، متى ما تمكنت المعرفة من إحداث التوائم للفرد مع واقعه واحتياجاته، وحققت له التكيف مع المواقف الجديدة، حيث يرى بياجيه أن الذكاء هو الأفعال التي تبرهن على القدرة على تحقيق التفاعل والتكيف مع المواقف الجديدة والبيئة. والذي يكون محدداً مسبقاً وفق مستوى نضج البنات العقلية (سليم. ١٩٨٥م، ص٢٤٧)، فهي بذلك نسبية نفعية لا تحمل طابع الحقيقة المطلقة، بل تكون جيدة للفرد بمدى تمكنها من تسيير أموره معرفياً مع عالمه المحيط به، وكلما ساعدته في تفسير ما يمر به من خبرات، وهي بذلك تقترب من فرد لآخر، فالبنائية تنظر للمعرفة على أنها وسيلة وليست غاية، فلا قدرة إنسانية للوصول للمعرفة الحقيقية المطلقة اليقينية، فهي وفق تعبير الخليلي " موقف فلسفي يزعم أن ما يُدعى بالحقيقة ماهي إلا تصور ذهني عند الإنسان معتقداً أنه تفصّاها واكتشفها. وبذلك فإن ما يُدعى بالحقيقة ليس إلا ابتداع تم من قبله دون وعي بأنه هو الذي ابتدعها، واعتقاداً منه بأن هذه الحقيقة موجودة بشكل مستقل عنه، في حين أنها من ابتكاره هو، وتكمن في دماغه. وتصبح هذه الابتداعات أو التطورات الذهنية هي أساس نظرتة إلى العالم من حوله وتصرفاته وإزاءه" (الخليلي، ١٤١٧هـ، ص٤٣٥).

المطلب الثالث: كيفية اكتساب المعرفة لدى البنائية: تعد المعرفة نسبية في النظرة البنائية؛ لكون البنائية ترى أن المعرفة يتم اكتسابها بواسطة الذات العارفة وخبراتها بشكل مستقل دون تدخل معرفي إلا في حدود تقديم نشاط يثير خبرة سابقة ذات صلة بها، فعندما يتفاعل المتعلم مع واقعه، ويصادف قصوراً معرفياً في بنائه المعرفي وعدم توائم بين المعرفة السابقة والمعرفة الجديدة بشكل يفقده توازنه الفكري، فإنه يعمد لتنظيم وترتيب منطقي لخبراته مع العالم، مما يجعل بناءه المعرفي تتحكم به ذاته القاصرة عن تمام الإدراك إلا في حدود خبراته، لذا فإنه من غير الممكن أن يصل الإنسان لاكتشاف حقيقة الوجود المطلق للأشياء من وجهة نظر البنائية.

المطلب الرابع: الخبرة والمعرفة: تركز البنائية على الخبرة الإنسانية في اكتساب المعرفة ونمو البنات المعرفية، حيث ترى أن الحقيقة المعرفية نسبية تتكون من ترابط وتنظيم داخلي هو الوسيلة الوحيدة لتشكل المعرفة الإنسانية نحو العالم الخارجي. "ومن وجهة نظر البنائية فإن عملية تكوين المعنى تحدث داخل الإنسان" (زيتون. ٢٠٠٣م: ص٤١). لكن لا بد من التفريق بين خبرة الذات العارفة وبين ذات المعرفة، فالفرق بينهما كالفرق بين الفكرة والشئ نفسه، فإن الفكرة أو المعرفة تصبح جزءاً من تفكير الفرد وخبراته، أما الشئ نفسه أو موضوع المعرفة فإنه شئ منفصل عن الفكر المكون له. (إبراهيم. ١٤٢٦هـ: ص٣). وهذا ما تلغيه البنائية حيث ترى أن المعرفة جزء من الذات العارفة تتبع منها، وتتشكل فيها وفق خبرة الإنسان مع موضوع المعرفة، فلا معنى للعالم الخارجي إلا في حدود خبرة الفرد، التي تمثل حدود لبنياته المعرفية.

المطلب الخامس: أنواع المعرفة عند جان بياجيه:

يميز جان بياجيه بين نوعين من المعرفة الإنسانية وفق اعتبار البنات المعرفية :

أ- معرفة شكلية: وتعد هي اللبنة الأولى للبنات المعرفية، والشرارة الأولى لانطلاق التراكيب العقلية، وتعرف بأنها: "المعرفة التي تشير إلى معرفة المثبرات بمعناها الحرفي" (زيتون. ١٤٢٣: ص٨٥) حيث يتعرف فيها الفرد على الأشكال وفق ارتباطها بمثير معين، فتكون معرفته عنها بمثابة المعرفة الأولية التي ينطلق منها بناؤه المعرفي.

ب- معرفة إجرائية: "هي المعرفة التي تنبع من المحاكاة العقلية" (زيتون. ١٤٢٣: ص ٨٥)، والتي تكتسب من خلال نشاط العقل الإنساني، وتفاعل خبرته السابقة مع الخبرة المعرفية الجديدة، وبواسطتها يتم الاستدلال على مستوى البناء العقلي الذي وصل له الفرد في بنائه المعرفي.

ووفق النظرة الإيستومولوجية (نظرية المعرفة) تشكلت النظرية البنائية فنازعتها مبادئها وأقامت أصولها عليها، مما يجعل السبيل لإدراك النظرية البنائية يكمن بدراسة نظرية المعرفة الارتقائية لجان بياجيه، التي مهدت الطريق وأضاعت الرؤى لبزوغ نظرية معرفية تعليمية تربوية، ركازها أبعاد المعرفة، وزادها نشاط المتعلم فهذه هي خلاصة الفكر البنائي الذي على الباحثين معالجته بشكل تفصيلي للارتقاء بالبناء المعرفي للمترين و لتضم تراكييهم العقلية معرفة عميقة بالرؤية النظرية لنظرية بياجيه البنائية.

المطلب السادس: مفهوم النظرية البنائية: هناك تعريفات عديدة للنظرية البنائية متباينة في المبادئ الخاصة بكل منظر لها، لكنها متحدة في المبدأ العام. ولعل تعريف المعجم الدولي للتربية كان الجهة المحايدة في بيان المبدأ العام المشترك بين منظرها حيث يعرفها بأنها " رؤية في نظرية التعليم ونمو الطفل، قوامها أن الطفل يكون نشطاً في بناء أنماط التفكير لديه؛ نتيجة تفاعل قدراته الفطرية مع الخبرة" (زيتون. ١٤٢٣: ص ١٧). كما تعرف البنائية بأنها: "عملية استقبال تحوى إعادة بناء المتعلمين لمعاني جديدة داخل سياق معرفتهم الآتية من خبرتهم السابقة وبيئة التعلم" (حسن شحاته وآخرون: ص ٢٨٦). فالمبدأ العام للنظرية البنائية الذي يعكسه التعريفان السابقان يتمثل في كون التعلم عملية بنائية، تتكون من عدة بنيات معرفية، تتم من بواسطة أساسين:

الأساس الأول: الخبرة السابقة للمتعم ونشاطه وتفاعل قدراته معها، فالتعلم يتطلب من المتعلم خبرة سابقة، ذات صلة بموضوع المعرفة، وتفاعل نشط للمتعم مع الخبرة الجديدة. وتعني الخبرة السابقة، المعرفة القبلية عن الموضوع المعرفي، فهي: "المعرفة التي تكتسب بالحدس أو التفكير المجرد، تميزاً لها عن الحقائق التي تكتسب بالاختبار والتجربة" (حمدان. ١٤٢٥هـ: ص ١٦٨) فهي وفق ذلك العمود الفقري الذي يقيم البناء المعرفي لدى البنائية.

الأساس الثاني: التكيف مع البيئة الخارجية، فالوظيفة الأساسية للمعرفة هي التكيف مع معطيات ومتطلبات البيئة الخارجية التي يتفاعل معها المتعلم، بحيث يكون هناك عملية موازنة بين البنات المعرفية والواقع.

حيث يرى جان بياجيه المؤسس الأول للنظرية البنائية الذي أرسى قواعدها أنها تعنى: "التكيفات الحادثة في المنظومات المعرفية الوظيفية للفرد، والتي تحدث لمعادلة التناقضات الناتجة من تفاعله مع معطيات العالم التجريبي" (زيتون. ١٤٢٣هـ: ص ٨١).

يشير تعريف جان بياجيه، لفلسفة البنائية التي تركز على نشاط الذات العارفة وتفاعل خبراتها السابقة مع موضوع المعرفة الجديدة مما يحدث نمو مستمر للبنات المعرفية بهدف تحقيق التكيف مع البيئة الخارجية، وهذا يقتضي ضرورة بيان ماهية البنات العقلية لدى جان بياجيه.

المطلب السابع: رؤية بياجيه للبنات العقلية:

لقد ارتكزت رؤية جان بياجيه للبنائية على البنات المعرفية التي تمثل منظومات عقلية يرتقي فيها العقل الإنساني معرفياً، وفق نشاط عقلي منظم مستمر يتمثل في التفكير المنطقي، والتنظيم المعرفي، والتذكر العقلي، والترابط المعنوي.

فرؤية بياجيه للعقل الإنساني تتمثل في كونه "مجموعة من البنات المعرفية الدينامية التي تساعد على صنع معنى ما يدرك، وهذه البنات تنمو من حيث التعقيد العقلي مع تزايد نضجنا ومع

تفاعلنا مع العالم الذي علينا أن نعرفه ومنه نكتسب الخبرة" (جابر. ١٤٢٦هـ: ص ٢٧٠)، تماماً كما يحدث في البناء الجسدي ومراحل نموه التي تزداد نضجاً كلما اتسعت حاجات الإنسان الجسدية. هذه الرؤية تجعل من النظرية البنائية نظرية في التعلم، تتبع من فلسفته في النظر إلى النمو الإنساني من الناحية البيولوجية، فهو عالم بيولوجي اهتم بدراسة النمو لدى الأطفال وتتبع مراحل والتغيرات التي تطرأ عليه، فوجد أن النمو الجسدي يحدث نتيجة لاتساع حاجات الإنسان الجسدية، فيأتي النمو متوافقاً مع مطالب الإنسان وحاجاته، وتبعاً لذلك فإن العقل كالجسد يمر بمراحل من البناء وفق احتياجاته المعرفية واتساع مطالبه التي تتطلب منه ايجاد التكيف المناسب معها، إلا أن النمو العقلي في الإنسان لا يحتاج لأفعال بيولوجية بل لأفعال عقلية. (بياجيه. ١٩٩١م: ص ٢٩) " فالمنظور البنائي لجان بياجيه توليفاً أو تزاوجاً بين عدد من الأفكار المستفاد من مجالات ثلاثة: علم النفس المعرفي، وعلم النمو، والأنثروبولوجيا، فقد أسهم المجال الأول بفكرة أن العقل يكون نشطاً في بناء تفسيراته للمعرفة، ويكون استدلالاته منها، كما أسهم المجال الثاني بفكرة تباين تركيبات الفرد في مقدرته على التنبؤ تبعاً لنموه المعرفي، أما المجال الثالث فقد أسهم بفكرة أن التعلم يحدث بصورة طبيعية باعتباره عملية ثقافية مجتمعية يدخل فيها الفرد" (حسن شحاته وآخرون: ص ٢٨٦)، فالتعلم في نظر بياجيه ينشأ من حدوث بناء ونمو في البنيات المعرفية أو المفاهيمية التي يعرفها جان بياجيه بأنها: التراكيب العقلية الفطرية التي يولد الإنسان مزوداً بمجموعة منها، والتي تشبع احتياجاته وتمثل البنية الأولى للمعرفة، ومن ثم تبدأ في الارتقاء والنمو والاتساع تبعاً لنمو وتزايد احتياجاته التي تتطلب منه إشباعاً مناسباً لها، فعندما يصادف مثيراً جديداً وغريباً متمثلاً في مشكلة أو سؤال عقلي، فإنه سيكون دافعاً قوياً له للتعلم الذي من نتائجه إحداث تغير مستمر في التراكيب العقلية. (حسن شحاته وآخرون: ص ٨٨)، فالتعلم وفق نظرية بياجيه يركز على النشاط البنائي للفرد في محاولة فهمه للواقع من حوله، فعقله الإنساني يتضمن بنيات معرفية تتكون تبعاً لنشاطه العقلي في استقبال المعلومات الجديدة من البيئة المباشرة، ومن ثم تنظيمها وضمها للخبرات السابقة في تركيب جديد يحقق تكيف الخبرات فيما بينها، و يكسب المتعلم معنى ذاتياً عن العالم الخارجي وفق هذا التكيف الذي يمثل الدافع الأساسي للتعلم.

وتفصيل رؤية بياجيه لكيفية حدوث البنيات العقلية تتمثل في التصور التالي: يتفاعل الفرد مع بيئته المحيطة به، فيصادف مثيرات غريبة وجديدة، تفتقر عن الموجودة في تركيباته العقلية التي ولد مزوداً بها ونماها بتفاعله مع بيئته فمثلت خبراته السابقة، مما يحدث لديه ضغوطاً معرفية نتيجة الافتراق والتباين بين الخبرات السابقة المدرجة في تراكيبه العقلية والمعرفة الجديدة، فتتشكل لديه مشكلة أو غموض أو تساؤل عقلي يحدى عقله ويشعره بالاضطراب والاختلال في التوازن العقلي المعرفي، فيسعى لتفسير وفض الغموض وحل المشكلة القائمة بهذه المثيرات، فيقوم بنشاط أو مجموعة من الأنشطة التي ينظم فيها معارفه بعملتي التمثل والمواءمة التي تحقق له التكيف المناسب والذي يحدث بدوره تراكيب معرفية جديدة لدى الفرد. (زيتون. ١٤٢٣هـ: ص ٨٨-٩٥) (بياجيه. ١٩٩١م: ص ٢٥-٣٠).

فروئته للبنيات المعرفية تجعل التعلم عملية عقلية تمر بمراحل تتمثل فيما يلي:

المرحلة الأولى: نشاط الذات العارفة مع البيئة اعتماداً على خبرة سابقة مكتسبة.

المرحلة الثانية: ضغوط معرفية ممارسة على الخبرة السابقة نتيجة فقدان الاتزان المعرفي.

المرحلة الثالثة: التمثل والمواءمة والتي يتم فيها تنظيم ذاتي للمعرفة ينتج عنه حدوث التكيف.

المرحلة الرابعة: بناء ذاتي لمعنى المعرفة الجديدة ينتج عنها نماء جديد في البنيات المعرفية.

المطلب الثامن: مبادئ التعلم لنظرية جان بياجيه البنائية (زيتون. ٢٠٠٣هـ، ص ٣٧٨-٣٧٩) (حسن شحاته وآخرون: ص ٨٠-٨٨): قامت النظرية البنائية على مبدأ عام مشترك بين

منظريها عماده. أن التعلم مجموعة من البنيات المعرفية العقلية يحدث نتيجة تفاعل الخبرة السابقة للذات العارفة مع موضوع المعرفة، إلا أن رؤية جان بياجيه عكست مبادئه لمقتنه للبنيات المعرفية وكيفية نمائها تنبثق من فلسفته التنظيرية للبنائية، والتي يمكن بيانها وفق التفصيل التالي:

- ١- التعلم عملية تطور بنائي نمائي ذاتي للبنيات المعرفية للمتعلم، فالمعرفة ليست شيئاً مستقلاً عن المتعلم، بل هي وليدة نشاطه العقلي في تفسير الظواهر المحيطة به وفق الخبرات والمعلومات المكتسبة لديه مسبقاً ودمجها مع الخبرات الجديدة، فهي من ابتكاره وتكمن في عقله، مما يحدث لديه تغييراً في بنيته المعرفية من جراء إعادة تنظيم الأفكار والخبرات الموجودة ودمج المعلومات الجديدة بها.
- ٢- التعلم يركز على نشاط المتعلم فهو عملية تعليمية نشطة تعزز من دور المتعلم وتلغي سلبيته في تحصيل المعرفة بجعله عماد العملية التعليمية والمحرك الأساسي لها، حيث تبنى المعرفة بصورة نشطة غير سلبية وفق نشاط المتعلم.
- ٣- المعرفة القبلية (الخبرة السابقة) أساس وجوهر التعلم والبناء المعرفي للمعرفة الجديدة، حيث تكتسب المعرفة الجديدة معنى ومفهوماً يتناسب مع الخبرة السابقة.
- ٤- التعلم المعرفي عملية تنظيم ذاتي للتراكيب المعرفية للفرد تستهدف مساعدته على التكيف مع الضغوط المعرفية، وهي أهم عوامل التعلم والبناء والنمو في التراكيب العقلية.
- ٥- عملية التنظيم الذاتي تحدث بواسطة عمليتين: الأولى التمثل وهي عملية استقبال للمعارف والمعلومات من البيئة ووضعها في تراكيب عقلية موجودة لدى الفرد سابقاً، فإن تمكن من توحيدها مع إحدى الصور العقلية التي لديه فإنه يكون قد تمثلها، وإن لم يتمكن من توحيدها فإنه يقوم بالعملية الثانية عملية المواءمة والتي يتم بواسطتها تعديل العقل لبنيات المعرفة؛ لتناسب مع المثيرات الجديدة التي لم يتمكن من تمثلها فيغير تركيب فهمه حتى يتكيف معها. (محمد. ١٩٩١م: ص ٥٠).
- ٦- الإثراء المعرفي للأبنية المعرفية ويحدث من خلال عملية التمثل ويحدث التصحيح للأبنية المعرفية من خلال عملية المواءمة، وبواسطتهما يتمكن المتعلم من تكوين المفاهيم ويصدر التعميم المعرفي.
- ٧- التراكيب العقلية أو المنظومات المعرفية في نظر بياجيه في حالة نمو مستمر، وتمر بمراحل من التغيير والتطور وفق حاجات الفرد التي تتناسب مع مراحل نموه.
- ٨- التعلم في البنائية عملية غرضية التوجه يسعى من خلاله المتعلم لحل مشكلة أو فض غموض عقلي، أو الإجابة عن تساؤلات تحيره، أو تفسير لظاهرة تحيط به؛ وتكون هذه الأغراض قوة الدافع الذاتي له التي تجعله يسعى للتعلم، فالهدف من التعلم إحداث تكيف في البنيات المعرفية تتواءم مع الضغوط المعرفية الممارسة على الفرد.
- ٩- انبثاق المعرفة التعليمية الجديدة للمتعلم من الواقع يحدث أفضل تعلم، فعندما يواجه الفرد مشكلة أو موقفاً أو مهمة حقيقية تمثل معنى بالنسبة له، يرتقي بناؤه المعرفي إلى مستوى معرفي يفوق ما هو عليه، ويضفي للمعرفة الجديدة ثباتاً تطبيقياً لها.
- ١٠- الثبات المفاهيمي لموضوع المعرفة غير متحقق لدى المتعلمين تبعاً لتشكله وفق الخبرة الذاتية لديهم؛ مما يجعله يتباين من فرد لآخر تبعاً لتباين بنائه المعرفي.
- ١١- تحتم النظرية البنائية التدرج بالمتعلم من البسيط للمعقد؛ لكون البناء المعرفي السابق المتمثل في الخبرة المكتسبة عن موضوع المعرفة الجديدة يكون في حدود تفاعله المحدود معها في واقعه.
- ١٢- يتمثل الدافع للتعلم في شعور الفرد بعدم الاتزان نتيجة الضغوط المعرفية الجديدة التي تتصارع مع خبرته السابقة المحدودة عن موضوع المعرفة حيث يحدث التعلم عندما يحدث التناقض والتصادم بين واقع الفرد وبين خبراته المعرفية السابقة.

١٣- يتطلب التعلم البنائي بيئة تعليمية توفر أنشطة تتلاءم مع البنيات المعرفية للمتعلمين، وتتطلب منهم التفاعل المباشر معها، والتأمل العميق الذي يحدث بناءً ذاتياً للمعرفة في وسط تربوي اجتماعي، ملغياً وفق ذلك كل استراتيجيات تعليمية تقوم على التلقين والتلقي المباشر للمعرفة، وينمي كل استراتيجيات توفر التفاعل المثمر والتوسع المفاهيمي للمتعلم مع موضوع المعرفة، فهو بذلك يرى فاعلية استراتيجيات التعلم التعاوني وتناسبها مع النظرية البنائية، حيث إن المتعلم لا يبني معرفته بمعزل عن الآخرين بل يحتاج لوسط اجتماعي يمكنه من التلاقح الفكري الذي يوسع آفاق المتعلمين، ويمكنهم من التبادل المعرفي؛ مما يؤدي إلى نمو وتعديل في أبنيتهم المعرفية.

١٤- التعزيز يتم بواسطة المتعلم عندما يصل لمستوى معرفي يساعده على التكيف والالتزان بين أبنيتهم المعرفية، ويتمكن من حل مشاكله وتساؤلاته العقلية، وهو بذلك أشد تأثيراً على المتعلم، وأقوى محفزاً له لمواصلة تعليمه.

المبحث الثاني: استراتيجيات التعلم البنائي.

تعد استراتيجيات التدريس فن التطبيق والتنفيذ للنظريات التعليمية، والكيفية التي تنظم بها المعلومات المعرفية والمواقف والخبرات التربوية، وتعد مبادئ التعلم لنظرية جان بياجيه البنائية القاعدة النظرية التي تنتظم فيها استراتيجيات التدريس البنائي، ويمكن وصف استراتيجيات التعليم البنائي وفق رؤية زيتون حيث يرى أنها: "استراتيجية تدريس قائمة على مبادئ التعليم البنائي يتم من خلالها مساعدة الطلاب على بناء معرفتهم (المفاهيم، المبادئ، القوانين... الخ) عن موضوع الدرس الجديد من خلال وضعهم في موقف ينطوي على مشكلة أو تساؤل جديد يثير اهتمامهم ويطلب منهم الإجابة عنه فيكشف عما لديهم من أفكار أولية ثم يتم توجيههم إلى إجراء نشاط استكشافي يساعدهم على اختبار صحة أفكارهم الأولية، وعلى تعلم المعرفة المتضمنة في موضوع الدرس الجديد، وعقب ممارستهم للنشاط في مجموعات تعاونية تعرض كل مجموعة ما توصلت إليه من نتائج وتفسيرات يتم مناقشتها من قبل أفراد الصف جميعاً، ثم يتم تلخيصها في صورة معلومات أساسية، ويعقب ذلك قيام المجموعات بنشاط جديد ذي علاقة بتلك المعلومات بهدف إثراء تلك المعلومات واستخدامها في موقف جديد" (زيتون. ٢٠٠٣م: ص ٣٨٣). ووفق رؤية حسن زيتون فإن التدريس وفق استراتيجيات التعلم البنائي يمر بمراحل سيتم بيانها في المطلب الأول.

المطلب الأول: مراحل التدريس وفق استراتيجيات التعلم البنائي (زيتون. ٢٠٠٣م: ص ٣٨٤-٣٨٦).

١- التنشيط: يمثل التنشيط خطوة مهمة للمعلم يستطيع من خلالها قياس مستوى البناء المعرفي للمتعلمين نحو موضوع المعرفة، كما أنها مرحلة عقلية تعليمية قوية الأثر على المتعلمين حيث تعمل على استثارة دافعيتهم وتنشيطهم للتعلم، وتتم من خلال تعريض المتعلمين لمشكلة أو تساؤل يتحدى الذات العارفة لديهم، ويفقدها توازنها المعرفي؛ مما يدفعهم للبحث عن حلول مناسبة تحقق التكيف فيتحقق بالتالي التعلم والبناء الجديد في البنيات العقلية لدى المتعلمين.

٢- مرحلة الاستكشاف: يتم فيها عمل المتعلم مع مجموعة تعاونية يكون هدفهم الوصول لحلول للمشكلة أو التساؤل المقدم في التنشيط، وهذه المرحلة تتطلب معلومات كافية يتم تعريض المتعلم لها كي يتمكن من الوصول إلى معارف جديدة وخبرات حديثة.

٣- المشاركة: يتم فيها تناقش أفراد المجموعات حول النتائج التي توصلوا إليها من خلال عملهم ضمن مجموعاتهم وتتيح لهم التبادل المعرفي الذي يحدث في أبنيتهم المعرفية البناء الجديد للمعرفة.

٤- التوسيع: وهو عملية إثراء للمعرفة بتطبيقها حيث يمارس المتعلمون نشاطاً جديداً يوسعون من خلاله معرفتهم ويطبقونها في حياتهم العملية، كما تمنحهم القدرة على إصدار قراراتهم التي

تتعلق بالقضايا والمشكلات الشخصية والاجتماعية، فهي عملية تطبيق للمعرفة في الواقع، وقياس للقضايا على نظيراتها كما يعرف في الفقه الإسلامي. ووفق هذه المراحل فإن التخطيط لعملية التدريس وفق النظرية البنائية يتطلب الاعتناء بالعناصر التالية:

أ- الاختيار الجيد لمحاور المنهج ومواضيعه المعرفية بحيث تتضمن مفاهيم معينة قابلة للتطور والنماء لا تمثل مسلمات معرفية لا يصل لها العقل المجرد وفق تفاعل خبراته السابقة مع الأنشطة المعرفية الجديدة.

ب- صياغة أهداف الدرس التي يتطلب تحقيقها نشاط المتعلم.

ج- الإعداد للموقف التنشيطي.

د- التخطيط للأنشطة الاستكشافية، والأنشطة التوسيعية.

المطلب الثاني: التطبيق التربوي لاستراتيجية التعلم البنائي:

إن تطبيق استراتيجية التعلم البنائي في المجال التربوي يحتاج لأساسيات تربوية تستنتج من مبادئها ونظريتها حول المعرفة وكيفية اكتسابها يمكن للباحثة تفنيها وفق ما يلي:

- ١- أن تتناسب المعرفة مع مستوى البناء المعرفي لخبرات المتعلمين.
- ٢- أن تتسم المعرفة الجديدة بالواقعية والأصالة أي ذات علاقة بحياة المتعلم وذات معنى بالنسبة له.
- ٣- أن يتم بناء المنهج وفق محاور معرفية مترابطة متصلة ببعضها البعض، مرنة يمكن تصميم الأنشطة وفقاً لها، تقوم على مفاهيم جزئية للمعرفة وليست كلية، وهذا يقتضي أن يكون تصميم المنهج يعتني بالكيف المعرفي لا الكم المعرفي.
- ٤- الاعتماد على الأنشطة البنائية والتي تعرف بأنها: "أنشطة مخطط لها ومقصودة يقوم بها التلاميذ تحت إشراف المعلم أثناء دراسة موضوع ما أو وحدة دراسية، وبغرض تحقيق الأهداف التي سبق تحديدها ويشترط فيها أن تكون متنوعة لتراعي الفروق الفردية والحاجات والميول والاهتمامات الخاصة بالتلاميذ" (اللقاني و الجمل. ١٤٢٤هـ: ص ٥٦)، ومن أنواعها الأنشطة التنشيطية والاستكشافية التي تستخدم فيها العروض العملية، أو مواقف تمثل الواقع المعرفي، أو أسئلة بنائية تثري العملية التعليمية.
- ٥- أن ينظم المعلم الأنشطة ويقدمها في وقت مناسب.
- ٦- يتطلب التعلم وفق هذه الاستراتيجية وقتاً زمنياً كافياً لكل مرحلة يمر بها التعلم.
- ٧- يتطلب التعلم تقويماً قديماً وبعدياً مدروساً بشكل جيد يطرح فيه المعلم على المتعلمين أسئلة تقيس بنيتهم المعرفية، وتستدعي خبراتهم السابقة لكي يتم البناء عليها أو إحداث التغيير فيها.
- ٨- إن الأسئلة الإيحائية التي يجيب عنها المتعلمون بنعم أو لا، غير مقبولة لدى البنائية؛ لكونها توصل المتعلمين لنظرة أحادية عن المعرفة، وتقلها لهم دون نشاط منهم يعكس مستوى بنائهم المعرفي، ويحقق نمواً لديهم، وهذا ما ترفضه النظرية البنائية، وتستبدله بالأسئلة الكشافية وهي " أسئلة تحتاج من المتعلم تفكيراً أو بحثاً أو تأملاً، وتحتاج من المعلم استخدام أساليب غير الأساليب التقليدية كأساليب العمل الكشفي أو التعلم بالاكشاف أو أسلوب حل المشكلات " (اللقاني و الجمل. ١٤٢٤هـ: ص ٢٨).
- ٩- التكاليف المنزلية التي يستعين فيها المتعلم بالكتاب المدرسي الذي يقدم له معارف مسلماً بها بشكل مباشر دون جهد عقلي، لا تتناسب مع التعليم البنائي لكونها لا تكشف عن مدى النمو المعرفي الذي تحقق للمتعلم في أبنائه المعرفية.

١٠- وسيلة التقويم المتناسبة مع النظرية البنائية هي: التقويم الذي يعزز نشاط المتعلم وفعاليته مع المعرفة أثناء حصوله عليها، ويرى حسن زيتون أن استراتيجية التقويم بملفات التعلم تتناسب مع النظرية البنائية، وهي عبارة عن: " ملف شخصي لكل متعلم يمثل وعاء لمجموعة من الأنشطة والأعمال التي تعكس شخصيته وتميزه وتمثل أفضل ما قام به وأنجزه، وما لديه من معارف ومهارات واتجاهات" (زيتون. ٢٠٠٣م: ص ٤٠١). وتعتبر محتويات هذا الملف أداة رئيسية للتقويم، حيث تحتوى ملفات التعلم على نوعين من الأنشطة:

أ - أنشطة تمثل نتائج المتعلم الأدائي الذي قام به في البيئة الصفية.
ب - أنشطة تمثل عمليات التقدم والنمو الحادث لدى المتعلم تعكس ما تعلمه وكيف تعلمه، وهي عبارة عن مقالات تبين مدى الاستفادة والتقدم الذي أحرزه المتعلم. (زيتون. ٢٠٠٣م: ص ٤٠١).
إن هذا البيان التفصيلي لمبادئ نظرية جان بياجيه البنائية واستراتيجيتها التدريسية وتطبيقاتها التربوية يكشف لنا إيجابياتها وسلبياتها، والتي سيتم استنتاجها من وجهة نظر الباحثة في ضوء مصادر النظرية التربوية الإسلامية.

المبحث الثالث:

نقد مبادئ النظرية البنائية لجان بياجيه من وجهة نظر التربية الإسلامية.

من شأن أي نتاج بشري فكري أن تكون له إيجابيات وسلبيات؛ لكونه جزئياً في معالجته ورؤيته العقلية غير قادر على الوفاء بالتكامل في إدراك الحقائق خاصة ما تعلق بالجوانب الإنسانية التي تمثل محوراً معرفياً معقد التركيب تؤثر فيه عوامل عديدة بشكل لا يتهيأ معه الانضباط في عملية الاستدلال على سلوكيات إنسانية متعددة الدوافع. ونظرية جان بياجيه البنائية فلسفة تربوية من نتاج عقلي بشري تضم رؤى صائبة في أثرها وتأثيرها على الكيان الإنساني، وأخرى غير ذلك تبعاً لآثارها السلبية المترتبة عليها، وتوضيح ذلك يسهم في توجيه عملية التطبيق الوجهة التي ترتقي بالتربية الإنسانية بتغذيتها بالنظريات الحديثة، كما يوجه عمل مصممي المناهج والمنفذين لها لانتقاء مبادئها التربوية السليمة، وتجنب تفعيل المبادئ السلبية بما يكفل حفظ الكيان الإنساني من أخطاء التنظير، كما يكفل جهود المنظرين بتفعيلها بشكل صحيح يحفظ لها مكانتها التي تعلق كلما سلمت نتائجها التطبيقية.

المطلب الأول: إيجابيات نظرية جان بياجيه البنائية: للنظرية البنائية إيجابيات عديدة تنعكس على الميدان التربوي يمكن بيانها وفق ما يلي:

١- التعلم وفق النظرية البنائية أبقى أثراً وأقوى تأثيراً؛ لكونه يبنى بواسطة المتعلم ومتعلق به، وذو معنى وصلة بحياته العملية، متمركزاً حول خبراته السابقة، يرتقي بتفكيره وعملياته العقلية؛ مما يزيد من احتمال اكتساب المعرفة، والاحتفاظ بها واسترجاعها وتفعيلها مستقبلاً.

٢- يسهم التعلم البنائي في تنمية قدرة المتعلمين على التعلم الذاتي والمستمر من خلال تنمية عمليات التعلم عن طريق حل المشكلات والبحث العلمي.

٣- ينمي التعلم البنائي لدى المتعلم القدرة على حل مشكلاته وإيجاد التكيف المناسب مع واقعه، تبعاً لتنميته لقدرة المتعلم على الربط الجيد لخبراته السابقة ومعرفة العملية واستخدامها وتفعيلها في الوقت المناسب الذي يحقق التوازن المعرفي.

٤- يمتاز المنهج التعليمي البنائي بتركيزه على الأنشطة التي تتطلب من المتعلم سبر أغوار العلم؛ ليصل لبناء معرفي جديد منظم مترابط، وهو بذلك ينمي قدراته العقلية والتي من أهمها التنظيم، الترابط المعرفي، القدرة على إعادة التشكيل للصيغ المعرفية، الاستدلال والاستنتاج، التلاقح الفكري الذي يغذي آفاق المتعلم العقلية، القدرة على قياس الأمور والقضايا على

- نظيراتها، وأخيراً المرونة العقلية؛ فهو منهج نشط يصل بالمتعلم لتفعيل يتناسب مع احتياجاته الإنسانية.
- ٥- ينمي لدى المتعلم القدرة العقلية على ترابط الأفكار ونقدها وصياغتها في أسلوب معرفي فكري جديد يضيف للمعرفة بعداً جديداً للتطبيق.
- ٦- يوفر للمتعلم نشاطاً معرفياً يتناسب مع اهتماماته وميوله وقدراته.
- ٧- يقوي قدرة المتعلم الإبداعية للوصول لأفكار جديدة؛ تبعاً لتهيئة جو مناسب من الحرية الفكرية وعدم الاقتصار على نقل المعرفة وفق رؤية معينة توجب عليه اكتسابها كما هي.
- ٨- تهيء تناسباً بين المعرفة والنمو العقلي والاجتماعي الذي يحدث للمتعلم في واقعه، فتفاعل المتعلم مع العالم الخارجي يعينه على اكتساب الخبرات المعرفية التي تهيئ له ظروف التعلم وتسخر له دافعيته.
- ٩- تربط معرفة المتعلم بالعلم والمجتمع مما يجعل ثقافته المعرفية متصلة بثقافته العملية والاجتماعية.
- ١٠- ينمي القدرة على اتخاذ القرار في وسط يرتقي برؤية المتعلم ويعزز نظرته الخاصة.
- ١١- ينمي مهارات المناقشة والحوار والاستماع الفعال والتعلم التعاوني.
- ١٢- ينمي في المتعلم مبدأ الانضباط الذاتي، والالتزام في العمل.
- ١٣- عماد التعزيز في البنائية ذاتي، وكلما كان التعزيز متصلاً بالذات العارفة نابعاً منها فإنه سيكون أقوى أثراً وأشد تأثيراً عليها.
- المطلب الثاني: سلبيات نظرية جان بياجيه البنائية:**

- تمثل السلبيات تحديات وصعوبات تعيق تطبيق النظريات العلمية، و تتطلب توجيهاً تربوياً لها، وأولى خطوات التوجيه الكشف عنها وبيانها، ومن سلبيات نظرية جان بياجيه مايلي:
- ١- صعوبة في تحديد الأهداف وتقنينها؛ لكونها تعتمد على مستوى البنيات المعرفية للمتعلمين، والتي لا يمكن قياسها بشكل يسبق عملية التخطيط للأهداف؛ مما يتطلب توافر بدائل تربوية عديدة تتناسب مع تباين مستوى البنيات المعرفية لدى المتعلمين.
- ٢- إن الممارسات التدريسية للبنائية لا بد أن تقوم على توفير نشاط دافع للمتعلمين؛ لكي يقوموا بعملية الاستنباط لمعلومات جديدة، وإعادة تشكيلها بطريقة جديدة، وهذا يتطلب جهداً ووقتاً كافياً لإجراء النشاط الاستكشافي والتنشيطي.
- ٣- يصعب على المعلم خلق نشاط مشترك بين المتعلمين يتناسب مع احتياجاتهم لافتراقهم في ذلك وتباينهم في الخبرات التي تحد من قدراتهم على التعلم، فما يشكل لدى بعض المتعلمين ضغطاً معرفياً قد لا يؤثر في بعضهم الآخر.
- ٤- تركز أسس التعلم البنائي على استعداد المتعلم لفهم المعرفة الجديدة، كما يتم تشكيلها باستدعائه العقلي لخبراته السابقة، والمتعلمون متفاوتون في ذلك؛ مما يجعل تصميم المدخلات المعرفية وفق الأنشطة البنائية أمراً يتطلب من المعلم أن يكون على درجة عالية من الكفاءة العلمية والعملية، وعلى درجة عالية من الذكاء الذي يمكنه من إدراك مستوى كل متعلم على حده.
- ٥- التعلم البنائي يتطلب من المتعلمين أن يكونوا على مستوى عالٍ من النضج في قدراتهم العقلية أو متوسط كحد أدنى، أما المتعلمون ذوو القدرات البسيطة أو المنخفضة فإن التعلم البنائي لا يتناسب معهم؛ لكونه يتحدى قدراتهم مما يشعرهم بالإحباط الذي يؤدي إلى تسربهم من العملية التعليمية.
- ٦- لا تتناسب هذه الاستراتيجيات مع المواضيع المعرفية التي تدور حول حقائق مسلم بها ابتداءً، ويصعب اكتشافها من قبل المتعلم؛ لكونها تعتمد على الذات العارفة وخبراتها ونشاطها الفكري

دون وجود قاعدة معرفية، أو معرفة أساسية يقدمها المعلم للمتعلم مما يفقد العقل التوجه الصحيح المهم للوصول للمعرفة الحقيقية ، فليس كل نوع من أنواع المعرفة يخضع لاستقلال العقل الإنساني للوصول لها وإدراك كنهها.

٧- إن الذات العارفة لا تصفو خبراتها من الأخطاء، وجعلها منطلق البناء المعرفي الجديد دون قاعدة معرفية تنطلق منها، تجعل المتعلم يستقل في بنائه المعرفي بشكل لا يؤمن معه وجود التباس في أبنيته المعرفية ويستمر البناء عليها فتأصل المعارف على قواعد فاسدة وإن كانت نتائجها الجديدة صحيحة.

٨- صعوبة التقويم المنضبط بمخرج تعليمي محدد وواضح، فالتفاوت في البناء المعرفي يقتضي حدوث التعلم بدرجات متفاوتة بشكل يتطلب تعدد الأنشطة كي تتناسب مع كافة مستويات المتعلمين.

إن المعالجة النقدية السابقة لم تنتج من فراغ بل كانت نتيجة رؤية الباحثة المستضيئة بمبادئ التربية الإسلامية، فلقد أسهمت التربية الإسلامية في تشكيل رؤية تربوية ناضجة متوازنة متكاملة في نظرتها للكيان الإنساني تضمنت مبادئ تربوية لتوجيه استراتيجيات التعلم والتربية بما يتفق مع الخصائص الإنسانية ويلبي احتياجاتها في سمو يرتقي بالشخصية الإنسانية من كافة جوانبها .

وإن معرفة التربويين للمبادئ التربوية الإسلامية الواردة في الكتاب والسنة والفكر التربوي الإسلامي لعلماء المسلمين، والتي تقابل مبادئ نظرية جان بياجيه البنائية تسهم في توضيح أصالة ومرونة النظرية التربوية الإسلامية في ميدان التخطيط للعملية التربوية والارتقاء بها بما يحقق تربية مثمرة للكيان الإنساني، كما أنه يعين التربويين المسلمين على الانفتاح المدروس على الثقافات التربوية الأخرى والاستفادة منها بما يتفق مع الأصول والمبادئ الإسلامية ولا يتعارض معها؛ مما يجعلها قاعدة للتبادل المعرفي المدروس.

المطلب الثالث: مقابلة مبادئ النظرية البنائية بمبادئ التعلم في الفكر التربوي الإسلامي.

لقد مثل الفكر التربوي لدى المسلمين أوجه النضج التربوي للعملية التربوية حيث ساهم العلماء والمربون المسلمون بإرساء مبادئ تعليمية جاءت نظريات التربية الغربية الحديثة تنادي بها وتعتمد عليها في عملية التنظير لنظريات التعلم.

ويمكن مقابلة مبادئ نظرية جان بياجيه البنائية بمبادئ التربية الإسلامية في الفكر التربوي الإسلامي وفق ما يلي:

المبدأ الأول: مبدأ التعلم عملية بناء عقلي: يقابل مبدأ كون التعلم عملية بناء عقلي متطور مستمر، مبدأ العالم التربوي أبو حسن علي القابسي الذي يقوم على ضرورة مراعاة المنهج التعليمي لاستعداد المتعلم للتطور والتغير، ومراعاة تعديل سلوك المتعلم وفق نظام يتناسب مع قدراته ومرحلة نموه التي تفرق فيها احتياجاته ويتسع فيها أفقه العقلي تبعاً لاتساع تطلعاته ونظرة للكون بما يلبي احتياجاته.(الكيلاني. ١٤٠٥هـ: ص ١٨١). فهو يقترب بفلسفته التربوية وفق هذا المبدأ من فلسفة جان بياجيه، التي شكلت نظريته البنائية، حيث يدعو لأهمية مراعاة المنهج التربوي لمراحل النمو والتطور العقلي التي تقابلها نمو وتطور في احتياجات المتعلم الفطرية والاجتماعية، وكون النمو العقلي يزداد اتساعاً في آفاق المتعلم تبعاً لاتساع تطلعاته ونظرة للكون، وبذلك يقترب من النظرية البنائية التي ترى أن عملية التعلم إنما تحدث على هيئة بنيات معرفية تتسع كلما زاد اتساع خبرة الإنسان بتفاعله مع موضوع المعرفة وفق نشاط يتمثل في مشكلة يتعرض لها أو تساؤل لا يجد له توازناً مع الخبرات السابقة، فحاجته لإمكانية وجود التوازن بين ما طرأ عليه في واقعه يدفعه إلى إحداث تغيير أو تعديل للأبنية المعرفية لديه كي يصل للتوازن، فالتعلم لا يكون ذا معنى إذا حقق للمتعلم تقدماً معرفياً يوافق احتياجاته. كما يدعم العالم المسلم ابن مسكويه هذا المبدأ

بمبدأه الذي نادى إلى أهميته في التربية حيث يدعو إلى ضرورة مراعاة نمو المعرفة وفق نمو الاحتياجات الإنسانية، ويرى أن في الإنسان قوتين: (الكيلاني. ١٤٠٥هـ: ص ١٢٧).

أ- قوة عالمة يشناق بها إلى المعارف والعلوم.

ب - قوة عاملة يشناق بها إلى نظم الأمور وترتيبها.

فالقوة العاملة التي يشناق بها إلى المعارف والعلوم تمثل كون المعرفة بناء يتناسب مع احتياجات الإنسان التي تثير تفاعله مع بيئته وواقعه؛ لكون هذه القوة هي الدافع لاكتساب المعارف والعلوم التي تثيرها احتياجاته.

كما أن القوة العاملة التي يشناق بها إلى نظم الأمور وترتيبها تتوافق مع مبدأ البنائية القائم على كون أهم مراحل التعلم مرحلة التنظيم للمعارف الجديدة في بنيات الخبرات السابقة وفق عمليتي التمثل والمواءمة. إلا أن ابن مسكويه يضيف لمبدئه بعداً يصل بالمتعلم لمعرفة الحقيقة التي تلغي البنائية قدرة المتعلم في الوصول لها، حيث يرى أن كمال القوة العاملة أن يبلغ الإنسان في العلم منزلة يصدق فيها نظره وتصح بصيرته، فلا يغلط في اعتقاد ولا يخطئ في حقيقة، وتتحقق هذه القوة من العلم بالموجودات من خلال الوحي الرباني لعباده وهذه المرتبة من البناء العقلي والتنظيم المعرفي يعتبر آخر مراتب العلوم التي يطمئن به قلب المتعلم وتذهب معها حيرته. فالبعد الذي يضيفه ابن مسكويه للمعرفة الإنسانية يتمثل في جعل العلم الإلهي المستمد من كتاب الله المقروء وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مصدراً للعلم يهيء للإنسان معارف لا تدرك بعقله المجرد، وهي أعلى مراتب العلوم والمعارف التي تصل ببناءه العقلي بالمعارف اليقينية. وهنا فصل التميز والإيجابية التي عالجت سلبية النظرية البنائية في نظرتها لمعيارية المعرفة، فالمعرفة لدى البنائية وسيلة وليست غاية، ومعيار الحقيقة مدى تحقيقها للمنفعة الإنسانية، فالحقيقة المطلقة غير ممكنة التحقق بل نسبية تفرق من إنسان لآخر تبعاً لافتراق المنفعة وافتراق الخبرات الإنسانية. بينما يجعل ابن مسكويه المعرفة الحقيقية ممكنة ويصل إليها الإنسان تبعاً لتنظيمه العقلي للمعارف محققاً التكيف، فيغذي نظريته العقلية المستمدة من تفاعله مع بيئته بالنظرة الإلهية فيصّل للحقيقة اليقينية، ولعل افتقار جان بياجيه وأتباعه من المنظرين لمصدر المعرفة الإلهي وقصر المعرفة على ما يصل إليها الإنسان بعقله المجرد وفق تفاعله مع بيئته هي التي ولدت السلبية في بناء نظريته والتي انعكست أثارها على قصور المعرفة عن بلوغ الحقيقة المطلقة.

المبدأ الثاني: يتمثل العمود الفقري لعملية التعلم في نشاط ذات المتعلم وتفاعلها مع الخبرة السابقة:

إن المبدأ الذي نادى به النظرية البنائية في كون التعلم ذاتياً يعتمد على الذات العارفة ونشاطها يقابله مبدأ أحمد الخطيب البغدادي الذي يرى أن القاعدة الأساسية في التعلم ترتكز على أن يطلب المتعلم العلم ويشناق له وأن ينبع من ذاته ولا يفرض عليه من الخارج، ولكن هذا التعلم الذاتي لا يتم إلا إذا توافر الجو الملائم للتعلم، وهو أمر يقتضي مراعاة عدة مبادئ تتمثل فيما يلي (الكيلاني. ١٤٠٥هـ: ص ١٤٨-١٤٩):

أ- مراعاة الاستعدادات والفروق الفردية مما يقتضي الوقوف على درجة الاستعداد الذاتي، وهذا يشير إلى كون العلم يتكون من عدة بنيات معرفية كل بنية تتبع وتقابل استعدادات معرفية لدى المتعلم.

ب- أهمية تعزيز المعلم بثنائه وتزكيته للمتعلم حال وصوله للصواب وإظهار تميزه في تكوين الدافع للمتعلم لمواصلة العلم ورغبته فيه، أما المخطئ فعلى المعلم أن يأخذ بيده برفق ولين، ليدفعه لمزيد من التحليل العقلي للمعرفة، وهذا المبدأ يفترق مع مبدأ التعزيز في النظرية البنائية

حيث إنها ترى أن التعزيز داخلي ذاتي ينبع من شعور الفرد بالاتزان المعرفي، وبنماء أبنيته العقلية، فبتم مباشرة من قبل المتعلم حال وصوله للصواب دون حاجته لتعزيز من المعلم برغم من حدوثه في البنائية من قبل المعلم حال تقييمه لمستوى البناء المعرفي الحادث لدى المتعلم.

ج- مراعاة الحالة النفسية بأن يكون الدرس وقت نشاط المعلم والمتعلم، فإذا كان أي منهما في حالة نفسية لا توفر لهما هذا النشاط أضرت بالمتعلم وقصرت عقله عن القدرة على الاحتفاظ بالمعرفة وتثبيتها في ذهنه إذ لا تثبت في ذهنه وقد لا يفهمها، كما أن المتعلم يحتاج للنشاط أكثر من المعلم مما يوجب توفير بيئة نشطة توفر له قسطاً من الراحة واللذة، بأن يجعل المتعلم لنفسه قسطاً من الراحة كلما وصل لمعرفة جديدة وانتهى من نشاط متعلق بها كي يتمكن من تثبيتها في ذهنه. وهذا المبدأ يشكل استراتيجية التعلم البنائي المعتمد على الأنشطة التي هي عبارة عن مهام أو مشكلات حقيقية تُقدم للمتعلم المعرفة الجديدة بنشاطه وتفاعلها معها، حيث يجعل من المتعلم نقطة الارتكاز المعرفي بنشاطه العقلي الذي يحدث به التنظيم والترتيب للمعارف الجديدة وفق التراكم العقلي لخبراته السابقة.

كما أن أحمد الخطيب يعزز رؤية البنائية للأنشطة التوسيعية التي تتم بعد وصول المتعلم لبناء عقلي جديد للمعرفة الجديدة بحيث يعمد لربطها بنظيراتها في واقعه، كما يضفي أهمية ميزت نظريته عن النظرية البنائية فهو يوفر للعقل قسطاً من الراحة كلما انتهى من تعلم معرفة معينة كي يتمكن من تطبيقها فلا يضغط على العقل بكثرة المعارف وتعهدها، بينما نجد أن البنائية كثيراً ما يؤخذ على أنشطتها أنها قد تتحدى عقول المتعلمين بشكل يفقد لهم لذة العلم والاستمتاع بالنمو المعرفي.

المبدأ الثالث: مبدأ التنشيط البنائي بطرح تساؤل يدفع المتعلم للتعلم:

لقد دعا إلى هذا المبدأ الصحابي الملقب بباب العلم علي بن أبي طالب الذي أثر عنه قوله: " العلم خزائن، ومفتاحها السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل، والمعلم، والمستمع، والمجيب لهم " (الأصبهاني. ١٤٢٣هـ، ج ٣: ص ٢٢٤)، كما اشتهر أبو حنيفة بتوسعه في استخدام السؤال حيث كانت جميع مؤلفاته أجوبة عن أسئلة تلاميذه.

المبدأ الرابع: عملية التنظيم المعرفي: والذي يعمد فيه المتعلم لمراجعة خبراته الجديدة بخبراته السابقة وضمها وتنسيقها فهي عملية ظهرت أهميتها منذ صدر الإسلام فقد أفرد البخاري في صحيحه باباً تحت عنوان (من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه)، فذكر أن عائشة رضی الله عنها كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا إذا راجعت فيه حتى تعرفه.

وحقيقة إن الإسلام يراعي في التربية هذا البناء المعرفي لكنه يحذو به لتربية متكاملة متوازنة، فالتربية في الإسلام بناء يتكون من بنية عقدية، بنية خلقية، بنية عملية، فالبناء الأول المقدم في الإسلام البناء العقدي لكونه يطهر الأساس المعرفي ويوجه الوجهة السليمة، فهو ينظر للقلب الذي هو محل الاعتقاد والباعث على الإرادة على أنه القوة العلمية التي يجب تنقيتها لبلوغ الفهم الصائب، وقوة الاستدلال والتعقل لكل ما في الكون من دلائل وأسرار، ومن ثم يهتم بالبناء الخلقي وغرس الاتجاهات الأخلاقية السليمة. ودليل ذلك الترتيب المنطقي الوارد في الآية الكريمة لمنة الله على عبادة ببعثة نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم بالحق وبمنهج التربية الإسلامية التي يعلو بالإنسانية. قال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (سورة الجمعة: آية ٢). فالمرتبة الأولى للتربية التزكية النفسية والعقلية والعقدية من كل معتقد وفكر وهوى نفس يعطل قوى الإنسان العقلية ويؤثر في قدراتها عن بلوغ الهدى، فإن تمت هذه المرحلة هيأت للمتربي مرحلة العلم والفهم والإدراك الموصل لبلوغ الحكمة في القول والعمل وهي أعلى مراتب العلم والعمل. كما يرى الإسلام أن القدرة العقلية للإنسان لا تعد كافية للوصول للحقيقة المطلقة، فلا يصح ترك العقل دون مرجع علمي

يفوق عليه في التوجيه والإرشاد، ولا يستقل العقل بذاته في تحصيل كل علم. قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لِتَعْلَمُوا) (سورة الأنبياء: آية ٧). كما وضع للعقل حدود لا ينبغي تجاوزها بسير مجالات علمية لا تخضع لإدراكه ولا تتناسب مع قدراته المحدودة تبعاً لاختصاص علم الله بها. قال تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (سورة الأنعام: آية ٥٩). فالله سبحانه وتعالى يرشد العقل لقواعد معرفية تفيده في عملية التعلم وتمكنه من الوصول للمعرفة الحقيقية، ويضع حداً لذلك وفق حاجة الإنسان في الدنيا والآخرة ووفق قدراته. كما هو الحال في طلب العلم بحقيقة الروح الإنسانية، فالذي يقع تحت دائرة إدراك الإنسان وما ينفعه من العلم المتعلق بالروح هو مطالبها وكيفية الإرتقاء بها، أما كونها فلا يعتبر عتاداً ذا فائدة؛ لكونه يتحدى عقله بما لا يمكنه فهمه وإدراكه قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (سورة الإسراء: آية ٨٥). ولذلك وجه الله سبحانه وتعالى العقل الإنساني لمجالات التدبير والتفكير التي تعين عقله على فهم الوجود والاستدلال على رب موجود أوجد فأبدع، فلم يدعه في ظلمات تتبدد فيها قواه بل ربي أفقه العقلي الذي يشاقق به لتفتيق أنوار المعارف بأن وضع له قاعدة فكرية ينطلق منها تتمثل في كون المعارف منها ما هو ذو نفع وفائدة تتسع فيه احتياجات الإنسان ويتسع معها أفقه العقلي لتلبيتها، ومعارف لا حاجة للعقل لها؛ لكونها تتحدى قدراته فتضعفها، والسير في المهالك تضيق للجهد وفقدان للقوى. كما حرصت التربية الإسلامية على توفير الطريقة الصحيحة لتحصيل العلم وتنشيطه بتعقل وتفهم مبعثه تناسب العلم مع احتياجات الإنسان النفسية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ولكي يدعم الله هذا التناسب أنزل منهجه الشرعي التربوي منجماً بحسب الوقائع والحوادث مراعيًا في ذلك نوع المعرفة، فإن كانت المعرفة لا يتم إدراكها وتنشيطها في قلب الإنسان إلا إذا كان في واقعه ما يبعثه لوعيا وإدراك حكمها وفق حاجته التي تثير تساؤلاته العقلية فإنه لا ينزلها ابتداءً، بل يبعث في نفسه ويبث في واقعه مثيرات تستدعي طلبه لها؛ مما يجعل وقع الحكم الشرعي في النفوس يستدعي التطبيق والثبات عليه. فإن التربية الإسلامية تهدف لتفاعل الإنسان مع المعارف، والتعايش معها بعلم وثقافة ودراية معنوية ومادية تخلق في نفسه وحدة فكرية وعملية وخلقية.

فحاجات الإنسان تمثل أهدافاً لتعلمه وتوجهه العقلي ولم تقصر حاجاته على جانب العقل بل جعلتها في توازن، فالروح والعقل والجسد لكل منها احتياجات تتطلب العناية وتحتاج لعلم يرشدها إلى الوسائل الصحيحة لقضاء احتياجاتها، وبذلك لم يسفه الإسلام احتياجاته، ويعزلها عن العلم ولم يسفه قواه العقلية بصرفها عن التوجه إلى ما يتوافق مع فطرته وظروفه اليومية؛ لذا جاء نهج المسلمين التربويين نهجاً متكاملًا في النظر للعقل والإعلاء من قيمته في تحصيل المعرفة بأن جعلوا للعقل لقاءً واتحاداً بين ما يصل إليه وبين ما تزودنا به الشريعة الإسلامية من قوانين وأسرار لا تدرك بالعقل المجرد رغم كونها أساسيات تنطلق منها المعرفة الصحيحة الحقيقية.

فالحرية العقلية مقيدة في الإسلام بتحديد المجالات المعرفية الممكنة الإدراك، وتوفير القواعد المعرفية التي تمثل المسلمات. كما أن التربية الإسلامية دعت للنظر والتحري والتحليل العقلي للمعارف المكتسبة التي تمثل اللبنة الأولى للبناء العقلي للإنسان قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (سورة البقرة: آية ١٧٠).

الخاتمة وأهم النتائج:

لقد توصل البحث من خلال تحليل مبادئ النظرية البنائية لجان بياجيه واستراتيجية التعلم البنائي، ومقابلتها بمبادئ بعض من علماء الفكر التربوي الإسلامي إلى أن المعرفة في الإسلام تعد منظومة فكرية ناتجة عن تفاعل العقل البشري مع المنظومة الكونية، والمنظومة الشرعية من مصدرى الوحي الإلهي؛ مما يجعل نجاح الجهد العقلي في الفكر التربوي الإسلامي مرتبطاً بمدى التناسق العقلي والجمع والضم لبناء المعرفة المكتسبة من مصادرها المتنوعة (الشرع والعقل والكون)، وتفرغه من الشواغل التي تعيق تحصيله مكونة له هدفاً واتجاهاً ذا قيمة. كما أن تكوين الاتجاه القبلي المتمثل في الخبرة الذاتية السابقة لدى البنائية فإن الإسلام اهتم بتكوينه من خلال تزويد المسلم بالسنن الكونية والشرعية، والمعارف غير المحسوسة التي لا يبلغ العقل ادراكها مستقلاً بذاته والتي تعد قاعدة للبناء المعرفي الأصيل والسليم " فتكوين الاتجاه هذا لا يقوم على التعليم المطلق العفوي وإنما يقوم على توجيه نظر المتعلم إلى قوانين الكون ومعجزات الخلق، وإلى المجهول الذي يحيط بالوجود المحسوس أو ما كان قبل الحياة وبعدها " (الكيلاني، ١٤٠٥هـ: ص ٥٧). إن هذه الضوابط التي أحاطت بأراء المفكرين المسلمين تقض السلبية التي أحاطت بنتائج النظرية البنائية حال تطبيقها حيث واجهت النقد في أن ليس للعقل قدرة على أن يستقل بالوصول إلى كل نوع من أنواع المعرفة، وإلى ضرورة تزويد المتعلم بخبره تعليمية من مصادر أصيلة تمثل قاعدة معرفية يقيم عليها المتعلم بناءه المعرفي، وإلى ضرورة تطهير خبرة المتعلم قبل تزويده بالمعارف الجديدة وفق القاعدة التربوية، التخلية قبل التحلية، فتكوين الاتجاه في أراء بعض المفكرين المسلمين يكون بشعور المتعلم بمدى حاجته إلى الاستعانة بالهدى الإلهي فإذا وجد لديه هذا الشعور وغذي به ذاته نما لديه الاتجاه الصحيح نحو البناء المعرفي السليم وتمكن من الوصول لفهم دقيق راسخ القواعد يقيني الثبوت، ومتى ما تغيب هذا الاتجاه تغيب الفهم الصحيح وضعف البناء المعرفي واضمحل. حيث أرشد الله عباده إلى أن الهداية للحق تكمن في التمسك بعلم القرآن الكريم قال تعالى: (الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَارِيبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (سورة البقرة: آية ١ - ٥). ووفق ذلك يمكن تلخيص أهم النتائج التي توصل لها البحث كما يلي:

- ١- تتفق النظرية البنائية مع النظرية التربوية الإسلامية في كون التعلم لا يكون ذا معنى إلا إذا حقق للمتعلم تقدماً معرفياً يتفق مع احتياجاته.
- ٢- تتفق النظرية البنائية مع النظرية التربوية الإسلامية في كون التعلم إنما يحدث على هيئة بنيات معرفية تتسع كلما زاد اتساع خبرة الإنسان بتفاعله مع موضوع المعرفة وفق نشاط الذات العارفة.
- ٣- تؤكد النظرية البنائية والإسلامية على أهمية نشاط الذات العارفة، فكلما زاد نشاطها زاد بنائها المعرفي.
- ٤- تعلق النظرية الإسلامية على البنائية في تعدد الأبنية المعرفية فهي تتضمن البناء العقدي، والخلقي، والعلمي، كما تتنوع مصادر اكتسابها.
- ٥- البناء الأول للمعرفة المقدم في الإسلام هو البناء العقدي لكونه يظهر البناء المعرفي ويوجهه الوجهة السليمة.
- ٦- تعلق النظرية التربوية الإسلامية على النظرية البنائية في كون الحقيقة المطلقة ممكنة الإدراك تبعاً لتنوع مصادر ادراكها في التربية الإسلامية وعدم قصرها على الخبرة السابقة.
- ٧- تؤكد النظرية التربوية الإسلامية على أن القدرة العقلية للإنسان لا تعد كافية للوصول للحقيقة المطلقة، فلا يصح ترك العقل دون مرجع علمي يفوق عليه في التوجيه والإرشاد.

- ٨- تؤكد النظرية الإسلامية والبنائية على مبدأ التعزيز الذاتي في تقوية الدافعية لدى المتعلم إلا أن النظرية الإسلامية لا تكفي به عن التعزيز الخارجي.
- ٩- ارسى البغدادي أبعاد لنشاط الذات العارفة تفوق النظرية البنائية.
- ١٠- تتفق النظرية البنائية مع النظرية التربوية الإسلامية في أهمية مبدأ التنشيط البنائي وفق استراتيجية طرح التساؤلات.

قائمة المصادر و المراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المراجع

- ١- إبراهيم، مجدي عزيز. (١٤٢٦هـ). التفكير من منظور تربوي، القاهرة: عالم الكتب.
- ٢- بياحيه، جان. (١٩٩١م). الاستمولوجيا التكوينية، ترجمة السيد نفادي، القاهرة: دار الثقافة الجديدة.
- ٣- التركي، إبراهيم محمد. (٢٠١٠م). البحث الفلسفي ومناهجه. مصر: دار الكتب القانونية.
- ٤- الأصبهاني، أحمد بن عبد الله. (١٤٢٣هـ). ط٢. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تحقيق: مصطفى عطا، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ٥- جابر، جابر عبد الحميد. (١٤٢٦هـ). حجرة الدراسة الفارقة والبنائية، القاهرة: عالم الكتب.
- ٦- حمدان، محمد. (١٤٢٥هـ). معجم مصطلحات التربية والتعلم، الأردن، عمان: كنوز المعرفة.
- ٧- الخليلي، خليل وزملائه. (١٤١٧هـ). ط١. تدريس العلوم في مراحل التعليم، العام، دبي: دار القلم.
- ٨- زيتون، حسن و زيتون، كمال. (١٤٢٣هـ). التعلم والتدريس من منظور النظرية البنائية، القاهرة: عالم الكتب.
- ٩- زيتون، حسن حسين. (٢٠٠٣م). استراتيجيات التدريس رؤية معاصرة لطرق التعليم والتعلم، القاهرة: عالم الكتب.
- ١٠- سليم، مريم. (١٩٨٥م) ط١. علم تكوين المعرفة ابستمولوجيا بياحيه، بيروت: معهد الانماء العربي.
- ١١- علي، سعيد إسماعيل. (٢٠٠٦م). النزعة العقلية في الفكر التربوي الإسلامي، القاهرة: عالم الكتب.
- ١٢- الكيلاني، ماجد عرسان. (١٤٠٥هـ). تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، المدينة المنورة: مكتبة دار التراث.
- ١٣- اللقاني، أحمد حسين والجمال، علي أحمد. (١٤٢٤هـ). ط٣. معجم المصطلحات التربوية المعرفية في المناهج وطرق التدريس، القاهرة: عالم الكتب.
- ١٤- محمد، عادل عبد الله. (١٩٩١م). اتجاهات نظرية في سيكولوجية نمو الطفل والمراهق، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- ١٥- يالجن، مقداد. (١٤١٩هـ). مناهج البحث وتطبيقاتها في التربية الإسلامية، الرياض: دار عالم الكتب.